العبقري والتشاؤم

لعلّ العبقري هو أكثر الناس تشاؤما. ولعلّ الله خلق العباقرة متشائمين، أو لعلّ العبقرية هي مصدر التشاؤم وسببه.

ومهما يكن من أمر، فالمشهور ان أفذاذ العلماء والشعراء والكتّاب والفنانين وأمثالهم، يميلون الى التشاؤم، ميلا غريبا يصعب تحليله.

الواقع ان الكون يدعو الى التشاؤم. فالكذب والغدر والرياء والاضطهاد والظلم والاستعباد كل هذا من مقتضيات المدنية العصرية الشوهاء، أكثر فأكثر، وما نراه من صدق ووفاء ورفق ورحمة وعدل ليس إلا نباتا صغيرا يحجب عنه الشجر العالي نور الشمس ويمتص من حوله المواد الغذائية من الأرض فيخنقه في مهده. والإنسان بحسب قول روسو يولد طاهرا ثم لا يلبث أن يدبّ فيه الفساد متغلغلا متأصّلا في كل محيط، ومن ماشى التيار الجارف ووافق المجتمع على مبادئه المعوجة وغايته التي تأباها كل نفس تطمح الى الكمال الإنساني وجد ذاته مرتاحا ورأى الكون جنة ونعيما، أما من قاوم هذا التيار وأبى الاندماج فيه واجتهد في أن يحوّل مجراه، عدّه الناس مجنونا، ورأى ذاته غريبا بين أهله وجيرانه فيثور على المجتمع ويستعذب الموت الذي ينزع الروح من الجسد ويعيدها الى خالقها حيث تنعم بالحرية التي خلقت لها وتبلغ الكمال الذي طلبته ولم تقف له على أثر في العالم.

ومبدعو مجتمعاتنا يقفون أكثر من سواهم أمام هذا التيار الجارف ويؤلمهم استسلام الناس إليه فيعمدون الى سلاحهم الهني ويستعينون بملكاتهم فيرسمون خنوع الناس وتكالبهم بدرجات على المادة...

ما ندعو إليه عبثا منذ عقود، ثورة ثقافية تربوية إعلامية لا نرى حتى الساعة أي بوادر جديّة لها. فأين أهل الكهف السياسي المعنيون يا ترى؟!..

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه